في دائرة الضوء

النيل الذي لا يعرفه أحد

كلمات: **ناهد نصر**/ حور: **ألدو بافان**

«ألدو بافان» هو صحفى ومصور إيطالى اعتاد أن يتجول بعدسته عبر القارات الخمس ليسجل جوانب من طبيعة البلاد والعباد. وتعد سلسلة كتبه المصورة عن الأنهار الكبرى علامة فى تاريخه المهنى. لقد خصص أحد هذه الكتب لنهر النيل حيث سجل محيطه الإنسانى من المنبع إلى المصب. وفضلاً عن شمال إفريقيا والمغرب العربى، فقد زار مصر مرات كثيرة وصور مواقع مختلفة فى أنحائها لتعبر أعماله عن مقدار التنوع العظيم الذى يجذبه إليها.

يكشف فى حواره مع **المجلة** عن مغامرته الغنية بحكايات البشر والحجر والطبيعة عبر النهر بداية من إثيوبيا وأوغندا والسودان حتى ساحل المتوسط فى مصر.

فى دائرة الضوء

كتابك المصور عن «نهر النيل من الجبال إلى المتوسط» هو جزء من سلسلة مهمة نالت شهرة عالمية عن الأنهار الكبرى. لماذا الأنهار؟

الأنهار تمر عبر بلدان وتقطع قارات فتشكل تاريخ البشر وحضارتهم. النهر كتاب مفتوح يحكى قصة الجماعات البشرية على ضفافه: العمارة والتاريخ والأديان.

وما الذى يميز الرحلة عبر نهر النيل؟

النيل يرتبط بشكل وثيق بالتاريخ المصرى القديم، والمعالم الأثرية الكبرى خير شاهد على الملحمة الرائعة التى صنعها الفراعنة. إن الإبحار عبر النيل تجربة رائعة وعظيمة، بهرنى طول النهر وأهميته لمساحة شاسعة من الأراضى ليس فى مصر وحدها وإنما أيضاً فى السودان وجنوب السودان، وإثيوبيا وأوغندا. إنه نهر المدينة كما هو الحال فى القاهرة، لكنه أيضاً نهر الصحارى والمرتفعات وغابات السافانا. وعلى امتداده الشاسع تلتقى الحداثة والمعاصرة بالإيقاعات القديمة لقلب إفريقيا. تخرج المياه من فم النيل فى نقطة ما لتمر عبر عوالم شديدة التنوع.

كيف أعددت لرحلتك فى النيل؟ هل كانت البداية سهلة؟

الرحلة استغرقت عامين وهى تشبه الموزاييك الذى قمت بتشكيله قطعة قطعة. كنت أعرف مصر جيداً وكان علىّ القيام بعدة رحلات عبر بقية الدول لتغطية امتداد النهر، درست تاريخ البلدان التى يمر عبرها النيل لأحدد خصائص كل بلد، وقرأت كتب المسافرين الأوائل لأفهم ما واجهوه وما رأوه فى زمانهم. كان هدفى أن يشعر من يتصفح الكتاب بأنه يلتقط صوراً لنفسه فى مواقع مختلفة من النهر، أن يتخيل الماضى ويرى الحاضر، ويطلع على معلومات غنية عن البشر والمكان.

أوغندا، إثيوبيا، السودان، مصر: ما الذى يميز كل دولة من تلك الدول؟

كل دولة تختلف عن الأخرى بشدة، ربما لا يدرك الكثيرون أن ثلثى النيل يقعان خارج مصر، وعلى امتداد ٦٦٧٠ كم، فنحن الإيطاليون على سبيل المثال نميل لتصوير النيل على أنه النهر المصرى الذى كان مهد حضارة الفراعنة ومصدر حيويتها، هذا ما تعلمناه منذ المرحلة الابتدائية وما رسخ فى أذهاننا. ولذلك فى محاضراتى العامة عن النيل أجدنى مضطراً لتأكيد أنه لا يخص مصر وحدها، وأستخدم خريطة لأشير إلى نصيب الدول الأخرى منه. ولا أستغرب أن القليل جداً من الناس هم من يدركون أن جزءا من الحضارة الفرعونية تطور فى السودان

من منبع النيل فى أوغندا إلى البحر المتوسط، التقيت بأنماط وتجارب وتفاصيل مختلفة. ما هو انطباعك عن كل منها؟

الكتاب مكون من سبعة أقسام يتناول كل منها موقفاً مختلفاً، فبداية من منابع النيل فى أوغندا وإثيوبيا هناك حالة من التحول الدائم. ففى أوغندا حيث إفريقيا الداكنة توجد البحيرات العظمى ومساحات شاسعة من المياه تعبر غابات السافانا وتتشكل فى شلالات وبحيرات ومجارى مائية. هناك ستلتقى بالحيوانات البرية فى متنزهات واسعة، وكذلك بأهل القبائل الذين يعيشون وفق تقاليدهم القديمة. أما جنوب السودان التى يفصلها عن أوغندا خط عشوائى على الخريطة فهى دولة ناشئة للتو من رحم حرب قبلية دامت لعقود لكن البترول يتنبأ لها بمستقبل النمو والتنمية. أما فى إثيوبيا فيمر النيل الأزرق عبر مرتفعات تأخذك إلى الكنائس والأديرة القبطية، ويكتشف المرء أن القوارب المصنوعة من الغاب فى بحيرة تانا مصدر النيل الأزرق تشبه تلك التى تجدها فى المعابد الفرعونية. وحيث يلتقى النيل الأبيض بالأزرق فى الخرطوم تعبر المآذن المنتشرة بكثافة عن عقيدة سكانها المسلمين، ثم تأخذك انحناءات النهر عبر الصحراء البيضاء إلى بيوت النوبة الجميلة التى كانت ذات يوم مرتبطة بالنوبة المصرية والتى يغمر الجزء الأكبر منها الآن بحيرة ناصر. إن الاختلافات كبيرة ولا نهائية على ضفاف النهر، فالسفر من القاهرة عبر النيل نحو خط الاستواء يشبه السفر عبر آلة الزمن التى تأخذك إلى عمق التاريخ البشرى. إنها مغامرة مذهلة فإذا كانت لديك الشجاعة للتخلى عن تصوراتك المسبقة والانفتاح على التنوع ستغمرك الرحلة تماماً.

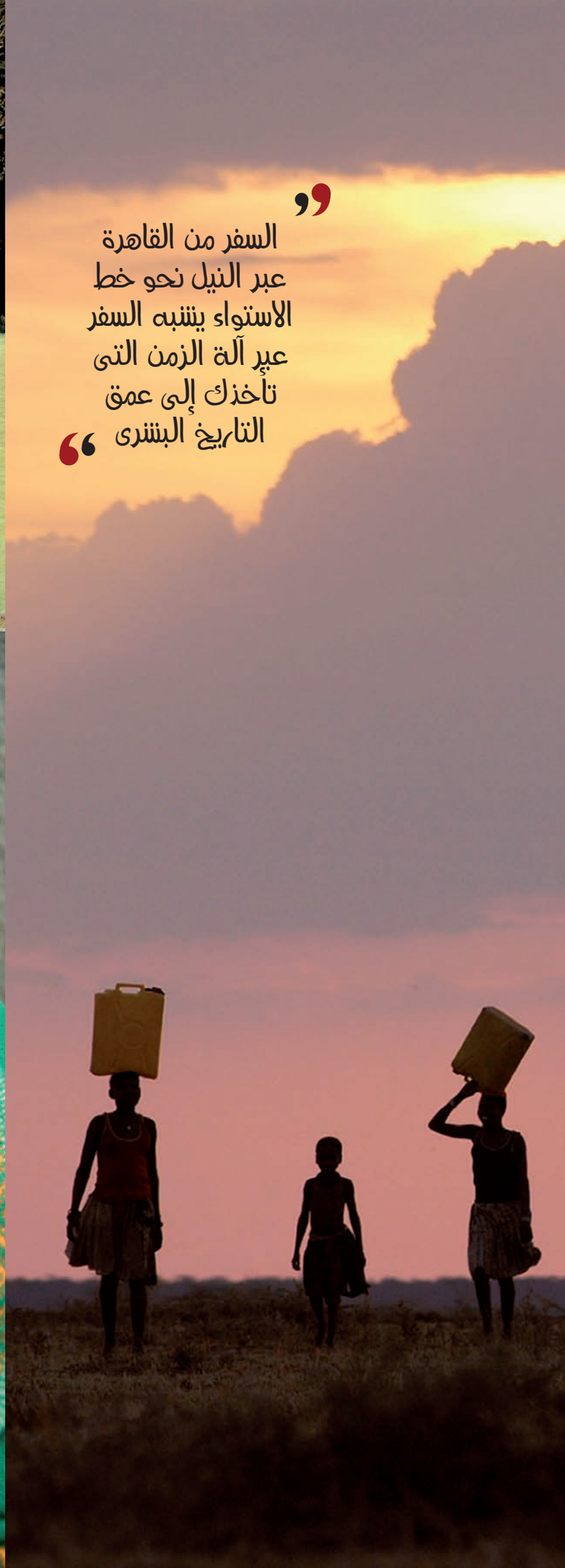

”
السفر من القاهرة
عبر النيل نحو خط
الاستواء يشبه السفر
عبر آلة الزمن التى
تأخذك إلى عمق
التاريخ البشرى
“

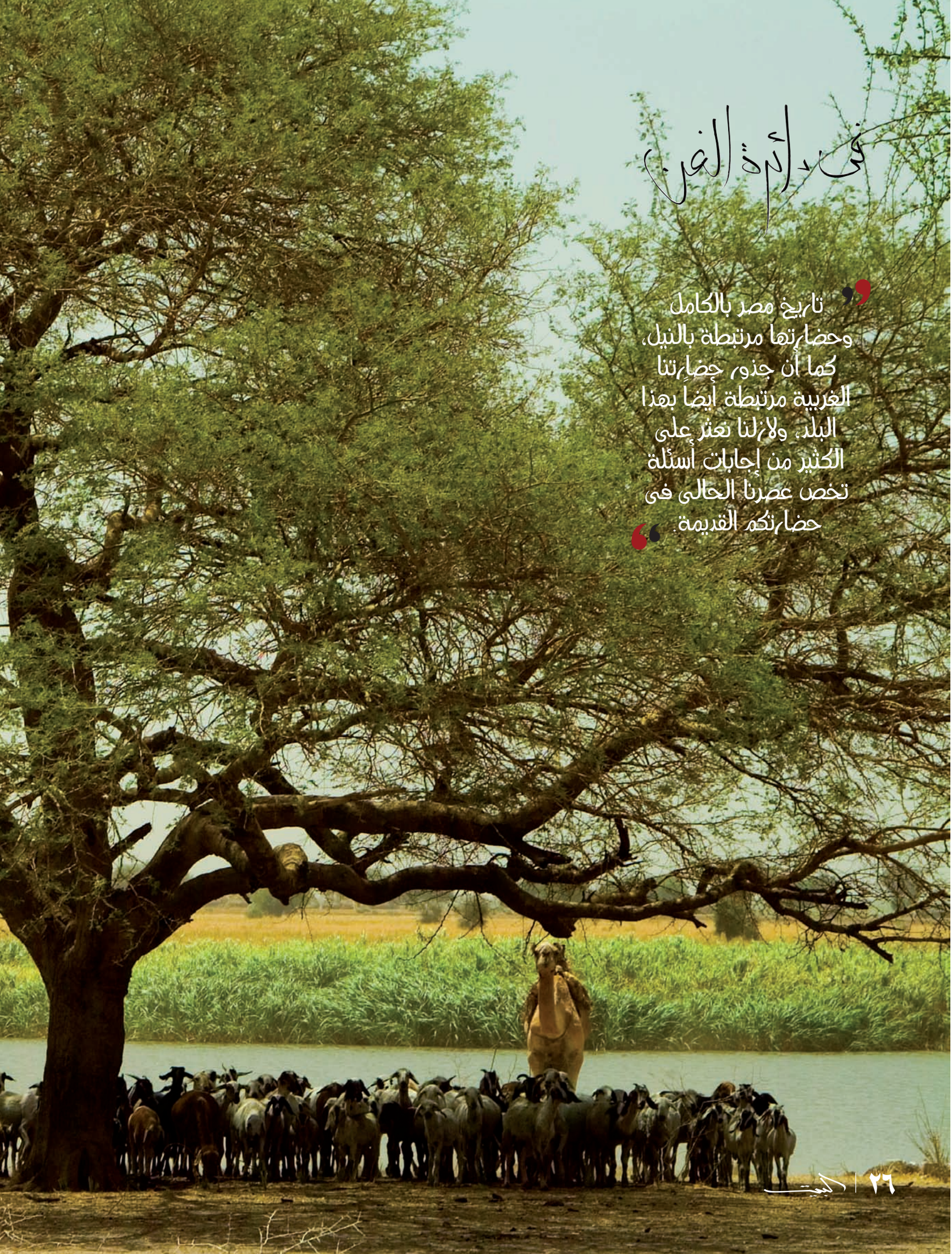

فى بداية الغربة

"تاريخ مصر بالكامل
وحضارتها مرتبطة بالنيل،
كما أن جذور حضارتنا
الغربية مرتبطة أيضا بهذا
البلد، ولازلنا نعثر على
الكثير من إجابات أسئلة
تخص عصرنا الحالى فى
حضارتكم القديمة."

نصيب مصر من الكتاب ثلاثة أقسام، فلماذا تضمن أجزاء عن الصحراء الغربية والواحات رغم أن النيل لا يمر من خلالها؟

تاريخ مصر بالكامل وحضارتها مرتبطة بالنيل، كما أن جذور حضارتنا الغربية مرتبط أيضاً بهذا البلد، ومازلنا نعثر على الكثير من إجابات أسئلة تخص عصرنا الحالى فى حضارتكم القديمة. أما لماذا ضمنا الكتاب الواحات والصحراء الغربية فلأن بعض الدارسين أشاروا إلى أن فروع صغيرة من النيل ربما مرت عبر هذه المناطق فى أزمنة قديمة ثم جفت، فقررت أن أطلع القارئ على أنماط مذهلة من الطبيعة والحياة فى المناطق التى يرجح أن النيل مر عبرها قديماً.

صور البشر تمثل جزءًا كبيراً من كتابك يتجاوز الأبنية والطبيعة، لماذا؟

البشر هم الذين يشيدون المبانى، وحتى الحجر يحكى قصة الأيادى والعقول التى أبدعت هذه الفنون العظيمة. لقد ركزت كثيراً على الوجوه. فوجوه الناس حكايات، علامة فى الوجه تدل على انتماء شخص لقبيلة ما، أو ابتسامة ترحيب بالغرباء، أو حتى تجاعيد تدل على حياة مليئة بالمعاناة والعمل تحت الشمس. الوجوه هى قصص الأفراد، وتاريخ الفرد هو الذى يصنع تاريخ المدينة.

ما الذى يميز النيل عن غيره من الأنهار الكبرى التى مررت بها؟

بالمقارنة مع النهر الأصفر فى الصين ونهر جانج فى الهند يمر النيل عبر مناطق شديدة التنوع ثقافيًا وجغرافيًا، بينما الأنهار الأخرى تمر عبر دولة واحدة. النيل نهر مذهل، إنه الأكثر إبهاراً على الكوكب فى جمعه بين أجزاء مختلفة من العالم .

هل يمكن أن يتحول النيل إلى سبب فى الصراع بين الدول التى يمر بها؟

استخدام المياه هو المعضلة الحقيقية، لكنها لا تخص هذا الجزء من إفريقيا فقط. إنها مشكلة فى العالم كله وستكون قضية مصيرية خلال السنوات المقبلة. لكننى لا أظن أنها ستؤدى لصراعات مسلحة.

ما نصيحتك لمن يرغب فى تكرار رحلتك عبر النيل؟

أنصح كل الناس بزيارة هذه المواقع التى صنعت تاريخ ذلك الجزء من إفريقيا: الأهرامات وآثار الفراعنة السمر فى السودان، وكنائس لاليبيلا وأديرة بحيرة تانا فى إثيوبيا، ومنابع النيل الأبيض وشلالات مورشيسون فى أوغندا. لكن نصيحتى لهم هى أن يتركوا أنفسهم للطرق الوعرة غير المطروقة لأنها دائماً ما تكون مليئة بالمفاجآت العظيمة وقصص الحياة.

فى دائرة الضوء

”
نصيحتى لمن يرغبون في تكرار الرحلة عبر النيل أن يتركوا أنفسهم للطرق الوعرة غير المطروقة لأنها دائماً ما تكون مليئة بالمفاجآت العظيمة وقصص الحياة
“

”
النهر كتاب مفتوح يحكى قصة الجماعات البشرية على ضفافه. والنيل هو نهر المدينة كما هو الحال فى القاهرة، لكنه أيضاً نهر الصحارى والمرتفعات وغابات السافانا. وعلى امتداده الشاسع تلتقى الحداثة والمعاصرة بالإيقاعات القديمة لقلب إفريقيا
“